﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ [العنكبوت: 36 - 37]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

على قدْرِ تكذيبِ الكافرين يقعُ النّصرُ والنّجاةُ للمؤمنين

بعد ذكر قصّة لوطٍ عليه السلام في شأنِ إهلاك قومِه بسبب فاحشتهم، ناسب الانتقالُ إلى ذكر قصّة شعيبٍ عليه السلام مع قومه، ذلك أنّ مدينَ كان من أبناء إبراهيم، وأنّ الله أنجاه من العذاب كما أنجى لوطًا، فبعث اللهُ شعيبًا إلى ذريّته المنسوبةِ قبيلتُهم إليه، فكذّبوه، كما كُذِّبَ الرّسل قبلَه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَدۡيَنَ﴾: اسمٌ من أسماء أولاد إبراهيم عليه السلام، وسمّيت باسمه القبيلةُ؛ لأنّهم كانوا عادةً ما يسمّون القومَ باسم أبرز أشخاصها، فانتقل الاسم من الشّخص إلى القبيلة، ثم إلى المكان، بدليل قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 23] فصارت مدينُ علمًا على البقعة، وقالوا: هذه البُقعة من الطّور إلى الفُرات، والمراد به في الآية: قبيلةُ مَدْيَن الذين هم من نسل مدين بن إبراهيم عليه السلام[2].

2) ﴿جَٰثِمِينَ﴾: (جثم) أصلٌ يدلُّ على تَجَمُّعِ الشَّيء[3]، ومنه الجُثوم: وهو أن يكون الإنسانُ مُنْكَبًّا على وجهه، رُكْبَتاه في الأرض[4]، والمراد به في الآية: واقعين على صدورهم، لازمين مكانًا واحدًا، لا يقدرون على حركة أصلًا، لأنّه لا أرواحَ لهم[5].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/ 231، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 18/ 1151.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جثم).
(4) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جثم).
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 449.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دأبُ الكافرين الإعـــــراضُ والعِناد، ودأبُ المرسلين البلاغُ والجهاد

عطفتِ الآية الكريمة قصّة إرسال شعيب ﷺ إلى مدين على قصة إرسال نوح ﷺ إلى قومه، وإبراهيمَ إلى قومه، ومدينُ هي القبيلة التي تُنْسَبُ إلى مَديَن بن إبراهيم ﷺ، فقال لهم: يا قوم اعبدوا اللّه وحده، وأخلصوا له العبادة، ما لكم من إله غيره، وارجوا بعبادتكم جزاءَ اليوم الآخر، ولا تكثروا في الأرض الفسادَ والمعاصيَ، ولا تقيموا عليها، ولكن توبوا إلى اللّه منها وأنيبوا[1]، فأخبرتِ الآية التّاليةُ عن فِعالِ أهل مدينَ مع شعيبٍ ﷺ، وأنّهم قابلوا نُصحه لهم بالتّكذيب الذي يرجع إلى الإخبارات الضّمنيّة، كأنّه قال لهم: اللّه واحد فاعبدوه، والحشرُ كائنٌ فارجوه، والفسادُ محرّم فلا تقربوه، فلمّا كان ذلك كذلك، أهلكهم بزلزلة عظيمةٍ ارتجفت لها القلوبُ، واضطربت بها الأفئدةُ، فأصبحوا في دارهم ميّتين لا حِراك بهم[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواو ودلالتُها:

العـطـف على مـذكـورٍ نـظـيرَ المحذوف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ للعطف، والجارُّ والمجرور متعلّقٌ بفعلٍ مضمرٍ تقديرُه: (أرسلنا إلى مدين) وهو معطوف على فعل الإرسال المذكور في قصّة نوح ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا﴾ [العنكبوت: 14]، أي: وأرسلنا إلى مدين شعيبًا[3].

عِلّةُ تقديمِ شبه الجملة على المفعول:

مـراعـاةُ المعنى والمبنى من عِللِ تقديم الألفاظ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ على المفعول ﴿أَخَاهُمْ﴾؛ لأنّ النّظم جاء على إضمار العامل (أرسلنا)، ولأجل الإضمار كان لا بدّ من تأخير المعمول ﴿أَخَاهُمْ﴾، إذ تقديمُ المعمول لا يتأتّى إلا بإظهار

(1) نخبة من العلماء، التّفسير الميسّر.
(2) القنّوجي، فتح البيان: 10/ 191، والمراغيّ، تفسير القرآن: 20/ 139.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 39.

العامل، ولا يُقال: (أرسلنا أخاهم شعيبًا إلى مدين)؛ لئلّا يعود الضّميرُ في ﴿أَخَاهُمْ﴾ على متأخّر لفظًا ورتبةً[1].

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿أَخَاهُمْ﴾:

وُصِف شعيب عليه السلام بأنّه أخو مدين؛ لكونه من نسبِهم وبلدِهم، كما يُقال: يا أخا العرب، أي: يا عربيّ[2]، والمقصودُ بيانُ شدَّة الصِّلة بين المرسَل والمرسَل إليه.

فائدةُ تقديمِ ﴿أَخَاهُمْ﴾ على ﴿شُعَيْبًا﴾:

وصْـفُ شعيبٍ عليه السلام بأنّه أخوهم تـشـريـفٌ لهم يستدعي زيـادةَ توبيخِهم

آثر النّظمُ الكريم تقديمَ ﴿أَخَاهُمْ﴾ على جعله مفعولًا لفعل الإرسال المحذوف، وتأخيرَ ﴿شُعَيْبًا﴾ على جعله عطفَ بيانٍ له، فلم يقل: (وإلى مدين شعيبًا أخاهم)؛ لأنّه أراد تعريف شعيبٍ بالنّسب، ولو قال: (شعيبا أخاهم) لكان فيه تعريفُ النّسَب بشعيب، وهذا خلافُ المقصود، وكذلك لو قال: (شعيبًا أخاهم) لم يَنْفِ أن يكون لهم أخٌ غيرُ شعيب؛ لأنّه بيّن الخاصّ بالعامّ، أمّا قوله: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ ففيه تبيين العامّ بالخاصّ؛ كأنّه لا أخ لهم على الحقيقة إلّا شعيب[3]، فكأنّه أراد بتقديم النّسب على الاسم أن يُذكّرهم بحقيقة الأخوّة في النّسب، وأنّ الأخ الحقيقيَّ هو من يحرص على تجنيب أخيه المتاعبَ والمهالكَ بتبليغه موردَ الأمن ودلالتِه على أسبابه، ولا أحد متّصفٌ بهذا المعنى معهم على الحقيقة إلّا أخوهم شعيب، فكأنّه لا أخ لهم إلّا هو، ففي قوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ دون (شعيبا أخاهم) مدحٌ لشعيب عليه السلام، وتذكيرٌ لهم بأنّ الأخوّة بينهم وبينه أخوّةٌ فريدةٌ لا نظيرَ لها، وهي أنهضُ لهم وأعونُ على طاعتهم وامتثالِهم.

نوعُ الفاء ومعناها:

الفاء في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ عاطفةٌ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 435، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 94.
(3) ابن الخبّاز، توجيه اللمع: 1/ 107.

مدخولَها على الفعل المقدّر، ومعناها التّسبيبُ والتّعقيبُ، أي: أرسلناه فتسبّب عن إرساله وتَعقَّبَه أن قال: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾.

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ:

سياقُ السّورة عاملٌ في انتقاء الحروف

خُصّ هذا الموضع باقتران الفاء بفعل القول ﴿فَقَالَ﴾ دون موضعَيِ [الأعراف: 85]، و[هود: 84]؛ وذلك لأنّ مقصود السّورة هنا الأمرُ بالمعروف والنّهيُ عن المنكر من غير فتْرة، فعبّر بالفاء للدّلالة على إسراعه في البيان والبلاغ[1]، دون الاكتفاء بذكر الحدث.

فائدةُ ذكرِ فعل القول:

ربَّ قولٍ يعدلُ أفعالَ أمَّة

ذكر النّظمُ الكريم فعْلَ القول في دعوة شعيبٍ ﷺ قومَه في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾؛ لأنّ القول هو آلةُ البلاغ والبيان، والبلاغُ هو منتهى مهمّةِ الرّسول، لا يُكلّف إلّا به، كما قال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [المائدة: 99]، وكما قال: ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: 48]، وقال: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفۡسَكَۚ﴾ [النساء: 84]؛ فلا يُستهان بقولِ الحقِّ، فيُقال: هؤلاء لا يُحسنون إلّا القول؛ فربَّ قولٍ يعدلُ أفعالَ أمَّة.

دلالةُ اقترانِ الأمر بالعبادة ورجاء الآخرة:

الإيمانُ بالآخرة علّةُ العبادات ومهوِّنُ المشقّات

اقترانُ الأمر بعبادة الله ورجاء اليوم الآخر هو كاقتران العمل بعاقبته، فأصلُ الأعمال عبادةُ الله، وعاقبة الأعمال كلّها حاصلةٌ في اليوم الآخر، ففيه إشارة إلى تصحيح الحال بالعبادة أوّلًا، وتصحيحِ المآل باعتقاد المصير إلى الله آخرًا، ولأنّ الإيمان بالمصير يُهوّن مشاقَّ العبادات والتّكاليف، ولأنَّه علّةُ العبادة، فمن لم يؤمن باليوم الآخر فلن يعبدَ الله تعالى، بل لا تصحُّ له عبادة[2].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 463، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 316.

مناسبةُ عطفِ النّهي على الأمر:

القاعدةُ هي عبادةُ الله تعالى وما بعدها ففروعٌ مُثمرةٌ

بعد الأمر بالعبادة والإيمان باليوم الآخر جاءت جملة النّهي: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾، وهو دليلٌ على أنّ الشّرع أفعالٌ وتروك[1]، وقد بدأ بالأمر؛ لأنّه الأصلُ الذي ينبني على أساسه الوازعُ المُعين على اجتناب المحرّمات، فلا معنى للنّهي عن المحارم من غير عبوديّة اللّه والإيمانِ بالبعث.

بلاغةُ المجاز بالحذف:

رجاءُ الشّيء قدْرٌ زائدٌ على مجرّد الإيمان به

حُذف المضافُ في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ على المجاز بالحذف، والتّقدير: (وارجوا ثوابَ اليوم الآخر)، واكتفى بذكر السّبب وهو الرّجاء عن مسبَّبه وهو الثّواب، ويمكن إجراءُ التّركيب من غير تقدير مضاف محذوف، من باب إطلاق الظّرف على ما يقع فيه، فسمّى الجزاءَ باسم زمانه، وهو اليوم الآخر، ويكون إسنادُ الرّجاء إلى المفعول من باب المجاز العقليِّ[2].

نكتةُ استعمالِ مفردة الرجاء:

رجاءُ الآخرة دليلُ الإيمان الصّادق والإسلامِ المطابق

آثر النَّظمُ الكريم الإتيانَ بمفردة الرّجاء دون الإيمان في قوله تعالى: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾، والرّجاء هو توقّعُ المُجازاة على سبيل الطّمع فيما يسرُّ والحذرِ ممّا يضرّ على وجْهٍ مخصوص من الإيمان واليقين، فالتّعبير بالرّجاء يقتضي الإيمانَ وزيادةً، وهو درجةٌ أعلى من مجرّد الإيمان؛ لكونه دليلَ الإيمان وهو من أمارات كمالِه، ولذا فمن النّاس من يؤمن باليوم الآخر، لكنّه لا يرجوه فوق رجاء الدّنيا، فالرّجاءُ هنا كنايةٌ عن لازمِه من كمال الإيمان والتّحقّقِ به[3].

نوعُ الفاء ودلالتُها:

تحتمل الفاءُ أن تكون تفريعيّةً أو فصيحةً

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة

(1) تفسير ابن عثيمين، سورة العنكبوت، ص: 185.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 361.
(3) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 316.

﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ﴾، فهي لتفريع موقفِهم على بلاغه لهم، وجاء الوصل بالفاء؛ لإثبات التّسبّب والتّرتّب، أي: تسبّب عن هذا البلاغ وترتّب عليه تكذيبُهم له، ويصحّ أن تكون الفاء فصيحةً عاطفةً مدخولَها على محذوف مقدّر ناشئٍ عمّا قبله، والتّقدير: (قال لهم: اعبدوا اللّه وآمِنوا بالبعث، فلمّا عقَلوا عنه بلاغَه واستوفَوا منه البيانَ كذّبوه)[1].

دلالةُ التّضعيف في فعل التكذيب:

المبالغةُ تُستفاد من الصّيغة والمفردةِ والسّياق

جاء فعلُ التّكذيب بالتّضعيف في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾؛ وذلك للمبالغة في نِسبةِ الكذب إليه ﷺ، وتضعيفُ فعل التّكذيب من أمارات التّعدية إلى المفعول، وأنّه رمْيٌ بالكذِب، فالمفعول هو المتّصف به، وليس الفاعل[2]، وهو يومئ إلى المبالغة في التّكذيب، بالصّيغة والمادّة والسّياق، أمّا الصّيغةُ فواضح، وأمّا المادّةُ فإنَّ تكذيب الصّادق عظيمٌ فكيف بتكذيب رسول اللّه، وأمّا السّياق فلمّا أمرَ بعبادة اللّه الموافقة لفطرتهم، جاء التّكذيب بشعًا شنعًا، وهذا من أشدِّ صور المبالغة.

بلاغةُ عطفِ المسبَّب على السّبب:

فعلُ الأخذِ في جملة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾ معطوف على فعل ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وهو من عطفِ المُسبَّب على سببه، فالتّكذيبُ سببٌ، والأخذُ مُسبَّبٌ عنه، والفاء للتّعقيب والتّفريع[3].

بلاغةُ المجاز العقليّ:

إسنادُ الأخذِ للرّجفة إسنادٌ إلى سببٍ صوري

أُسند فعلُ الأخذ للرّجفة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ﴾ وهو إسنادٌ لغير الفاعل الحقيقيّ؛ فالرّجفةُ لا إرادةَ لها لتفعل، بل هي آلةُ الفاعل في فِعله، والفاعلُ الحقيقيّ بالتّأثير والتّسيير هو اللّه سبحانه، ففي الإسناد مجازٌ عقليٌّ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.
(2) الرّاغب، المفردات: (كذب).
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الأخذ:

بـيـانُ سـرعـةِ الإهـلاك النّـازل بالقومِ

الأَخْذُ هو تناول الشّيء وتحصيلُه بقوّة وقهر، فهو إزالةٌ للشّيء من حِرزه الأوّل إلى حرز مُتناوِله، والمراد به في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الإهلاكُ والإعدام، فشبّه الإعدامَ بالأخذ، بجامع الإزالة في كُلٍّ[1]، على سبيل الاستعارة التّصريحيّة.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾:

تصويرُ الرّجفةِ بشخصٍ آخذٍ قاصدِ إهلاكَ المجرمين

الرّجفة في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ استعارةٌ مكنيّة، حيث نُزِّلَتْ منزلةَ المُريد القادر من الذّوات العاقلة التي لها قصدٌ وإرادة في الأخذ والإهلاك لخصومها، وفيه تصويرٌ ذو بالٍ للرّجفة وهي تترصّدُهم كأنّهم لها خصوم! حتّى تتمكّن منهم فتأخذَهم، ففي النّظم تشخيصٌ لها، ولا يخفى ما في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ من تصوير إقبالها عليهم إقبالَ المتمكّن بقوّةٍ ممّا يأخذه، مع ما فيه من تصوير ضعفهم وهوانِهم الشّديد وانتفاءِ حولِهم وقوّتهم أمام الرّجفة كأنّهم شيءٌ حقير أَخَذَتْه في مَهابِّها.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ لتفريع إصباحِهم على أخذ الرّجفة لهم، والعطف في الجملتين كالعطف بين السّبب ونتيجتِه، أي: بسبب ملابسة الرّجفة لهم أصبحوا جاثمين[2].

بلاغةُ استعمالِ مفردة الإصباح مادّةً وصيغةً:

إصباحُهم هو منتهى رَجْفَتِهم؛ لأنّه وقتُ نهايتهم المؤذِنُ بانقضاء الزّلزلة

آثر النّظمُ الكريم استعمالَ فعلِ الإصباح في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ للنّصِّ على وقت العذاب، وهو وقت الصَّباح، ومعنى (أصبح): دخل في وقت الصّبح، وتحديدُ الوقت فيه إشارةٌ إلى عدم إمكان التّدارك أو التّوبة، لفوات وقتهما بتعيّن وقت الإهلاك؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 247.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 14/ 436.

لأنّ القولَ حقَّ عليهم، والحكمَ نَفَذَ فيهم، بدلالة مجيء الفعل على صيغة الماضي، ويصحّ أن يكون ﴿فَأَصْبَحُواْ﴾ بمعنى الصّيرورة، أي: صاروا، وتحوّلوا من التمكّن إلى العجز، ومن رفْعِ الصّوت على نبيّهم بالجدال والاعتراض إلى الانكتام التّامّ والجثوم الخالص.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة على الخبر:

إذا نزل العذابُ بساحةِ قومٍ كانت هلاكَهم

قُدّم ذكرُ الجارِّ والمجرور وهو متعلّق الخبر على الخبر في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فلم يقل: (فأصبحوا جاثمين في دارهم) اهتمامًا بموضع هلاكهم، ولإفادة الحصر، أي: إنّهم لم يكونوا جاثمين هالكين إلّا في مساكنهم أو في بلدهم، فعلى الأوّل، فهم لم يغادروا بيوتهم وباغتَهم العذابُ وهم بائتون فيها فأصبحوا هلْكى، وعلى الثّاني، فلا أحدَ فيهم رحل عن البلد، ولا أحدَ منهم أفْلَتَ من الاستئصال.

غرضُ إفراد الدّار ودلالتُه:

إفرادُ الدّار يُراد به كلُّ دارٍ منفردة وتنزيلُ جميع الدّور منزلةَ الدّار الواحدة

إفرادُ لفظ الدّار في قوله تعالى: ﴿دَارِهِمْ﴾ إمّا لأنّ معناها مفرد، والمراد: أرضهم أو بلدهم، كما يقال: دار الهجرة، ودار الحرب، فيُراد بذلك ديارُ البلدِ جميعًا، فيكون أدلَّ على الإحاطة بهم، أو معناها الجمع والمراد: دار كلّ واحدٍ منهم خاصّة، أي: مسكنه، وأقيم فيه الواحد مقامَ الجمع لأمن اللبس؛ لأنّهم لا يكونون في دارٍ واحدة، فدلّ لفظ المفرد على إحاطة العذاب بهم؛ لأنّ العذاب توزّع عليهم، فكأنّ كلّ دارٍ فيهم أصابها حظُّها المقدورُ من العذاب، أو الإفراد في: ﴿دَارِهِمْ﴾ على إرادة الجنس، فيستغرقُ جميع الدّور، كأنّه جعل ديارهم المتعدّدةَ كالدّار الواحدة في حكم التّدمير الذي أصابهم، ويكأنّ الرّجفة التي زلزلَتْ مواضعهم أخذت ديارهم كما تأخذ الشّيءَ الواحدَ أخذةً واحدة، فديارهم في قانون التّدمير شيءٌ واحد غيرُ متعدّد لشدّة الرّجفة وهولها، وفي صيغة الإفراد إشارةٌ

إلى أنّ الرّجفة خرّبت مساكنَهم وهدمت ما بينها من الجدران فصارت كمسكنٍ واحد[1].

توجيهُ المتشابِه اللّفظيّ في الجمع والإفراد:

الصّيحة أوسعُ مدىً من الرّجفة

حيث ذكرتِ الرّجفةُ جاءت الدّار بلفظ الإفراد، كما هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾، وحيث ذكرتِ الصّيحةُ جاءت بلفظ الجمع، كما في موضعَيْ سورة هود؛ لأنّ الصّيحة كانت من السّماء، فهي أوسع في عمومها وانتشارها وأبلغُ من الزّلزلة التي هي الرّجفة، فيناسبُها الجمعُ لفظًا ومعنًى، والرّجفة أرضيّة سفليّة فهي أشدّ تحيّزًا في المكان من الصّيحة، وأقلُّ انبساطًا وامتدادًا منها، فقُرِنَ كلٌّ منهما بما هو ألْيقُ به[2].

كما أنَّ جمْعَ الدّيارِ مع الصّيحة يدلُّ على شدّتها، وإفرادَ الدّار مع الرّجفة يدلّ على قوّتها، فكلّ واحدةٍ منهما يدلّ على شدّتها في موضعها؛ لأنّ الصّيحة من شأنها الانتشارُ، فإذا عمّتِ الأماكنَ المتنائيةَ والمساكنَ المتباعدة أطبقتْ على عُمرانِهم كُلّه، فلا تغادر موضعًا أتتْ عليه في قريتهم إلّا دمّرته، والجمع يناسب هذا الشّمولَ الواسعَ في التّأثير والتّدمير، وأمّا الرّجفة والزّلزلة فكلّما كانت في شيء واحد كانت أمْكَنَ وأعنفَ، فناسبها الإفراد[3].

بلاغةُ الاستعارة في لفظ الجُثوم:

الجُثوم وصفٌ يوحي بتهوينهم وتحقيرِ أمرهم

استعمل النّظمُ الكريم مفردةَ: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ ومعناها: (ميّتين)، مِن جَثَمَ الطّائرُ إذا ألصق بطنه بالأرض، ولذا خُصّ الجثمان بشخص الإنسان قاعدًا، ثمّ توسّعوا، فاستعملوا الجُثومَ بمعنى الإقامة، ثم استعير وصفُ الجاثِم للميّت؛ لأنّه لا يبرح مكانه، ففي

(1) ابن جرير، جامع البيان: 10/ 303، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 362.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 403.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 7/ 449.

إطلاق الجُثوم عليهم حال موتهم صرعى استعارةٌ تصريحيّة؛ لأنّه شبّه الميّت بالجاثِم، أو استعارةٌ تمثيليّة في التّركيب، حيث شبّه حالهم وهم صرعى هالكون لا حركة لهم ولا صوت بحال الجاثم البارِك في مَرقدِه لا يبرحُه ولا ينفكُّ عنه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجُثوم والجثوّ:

الجُثوم والجثوّ حالتان من الجلوس على هيئة البُروك، إلّا أنّ الجثوم أصله في الطّائر والحيوان، كجثوم الأرنب إذا تلبّد في الأرض، ولم يبرح مكانَه، أمّا الجثوّ: فهو الجلوس على الرُّكَب، طلبًا للخصومة، أو لكربٍ نزل به، واستُعمل الجثومُ في القرآن في سياق حساب الدّنيا، فيُذكَر في مقام إهلاك الأمم بالصّيحة والرّجفة، كما في قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: هامدين ميّتين لا حياة لهم، فصاروا كالحيوان الجاثم المتصلّب في مكانه لا يبرحُه، وأمّا الجُثوّ والجِثيّ فاستعمل في القرآن في سياق الآخرة، فيُراد به البروك على الرّكَب للحساب والمحاججة؛ لأجل الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الجاثية: 28]، كما يُراد بالجِثيّ هيئةُ أهل النّار بعد حسابهم وقبل اقتحامها وهم متحلّقون حولها جاثين على الرّكب؛ إذلالًا لهم قبل دفعهم فيها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم: 68]، وهي هيئتهم بعد اقتحامهم فيها: ﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: 72]، وعليه: فالجثوم أخفّ من الجثوّ؛ لاقتران الأوّل بعذاب الدّنيا، واقتران الثّاني بالحساب وعذاب الآخرة، ويتّفق كلاهما في كونهما حاصلَين في عذاب، فلم يُستعمل

الجثوّ هيئةُ مَذلّةٍ مع حياة، والجثوم هيئةُ مَذلّةٍ مع موت

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 316، والآلوسي، روح المعاني: 6/ 323.

الجثوم في القرآن إلّا في إهلاك الأمم بعذاب الاستئصال، ولم يُستعملِ الجثوّ إلّا في مقام يوم القيامة، وفي مقامٍ غيرِ مستساغٍ على هيئةٍ غير مستساغة، ويشترك معه الجثومُ في ذلك، فكلاهما في استعمال القرآن هيئةُ سوءٍ وإذلالٍ وتعذيبٍ وإهانة[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيروزآباديّ، القاموس المحيط: (جثم)، وابن منظور، لسان العرب: (جثا)، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (جثو)، ومحمد ياس خضر، دقائق الفروق اللغوية، ص: 295.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»